أعيان مصر

وجوه مصرية معاصرة

خيري شلبي

الناشر : **الدار المصرية اللبنانية**
١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة
تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣
فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو
ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة
رقم الإيداع: ٢٢٦٥ / ١٩٩٨
الترقيم الدولي: x - 398 - 270 - 977
طبع : **المدنى**
العنوان: ٦٨ ش العباسية
تليفون: ٤٨٢٧٨٥١
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الأولى : رمضان ١٤١٨ هـ ـ يناير ١٩٩٨م
اللوحات إهداء من الفنان الدكتور : **خلف طايع**

أعيان مصر

وجوه مصرية معاصرة

خيري شلبي

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

عطفة

هؤلاء رهط من الأحباب، أحبابنا جميعا. تألقوا فى فنونهم فإذا هم بعض تجليات مصر. إنهم وجوه مجدها المتعدد الوجوه، وفصول من تاريخها الغنى بالفصول. إنهم هى، وما هى إلا هم، هيهات أن ينفصل أحدهما عن الآخر وإن باعدت بينهما العوادى والمنافى النائية. هم شرائح من لحم تاريخها الفنى والفكرى والأدبى والسياسى والاجتماعى، كل شريحة تتضمن إلى تاريخها الذاتى تاريخ فنها، زخم عصرها، رحيق عصيرها. هى حلقات منفصلة متصلة، ليست فى حاجة لمقدمات تستدرّ لها الرابطة وتختلق نوعا ما من الوصال.

هؤلاء هم زهور الوطن؛ طرحها شجر الإنسانية المصرية على امتداد قرن من الزمان الخصيب درجنا على تسميته بالقرن العشرين. نطلُّ بها على القرن الداخل مزهوين بموفور الحصاد؛ حتى إذا ما شبَّ القرن الواحد والعشرون عن الطوق وتسلق سور القرن العشرين أسكره الأريج وأنعشته العطور ألهمته عطورا جديدة لقحته بالخصوبة المصرية الفذة أبدا. إن زهور الوطن المروية بعرق الإنسانية لا تعرف الجفاف ولا يعرفها الذبول. ذلك أن دم الناس والوطن

يجرى فى أوراقها، فتبقى حتى الأبد حيَّة فواحة بالشذى والعبير تضحه فينا. .وفى قابل الأجيال.

لسنا نؤرخ، لا ولا ننقد. . إنما نُنْشد سيرة الأحباب العطرة. فسيرة الأحباب دائما عطرة، محببة. ما أصدق رامى إذ يقــول: ولما أشوف حد يحبك. . يحلالى أجيبْ سيرتك وياه.

«خيرى شلبى»

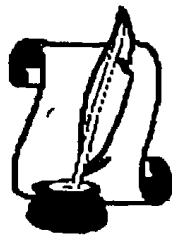

باب الكلم

* يوسف إدريس: النجم
* نعمان عاشور: الطواف
* ميخائيل رومان: الفرعون

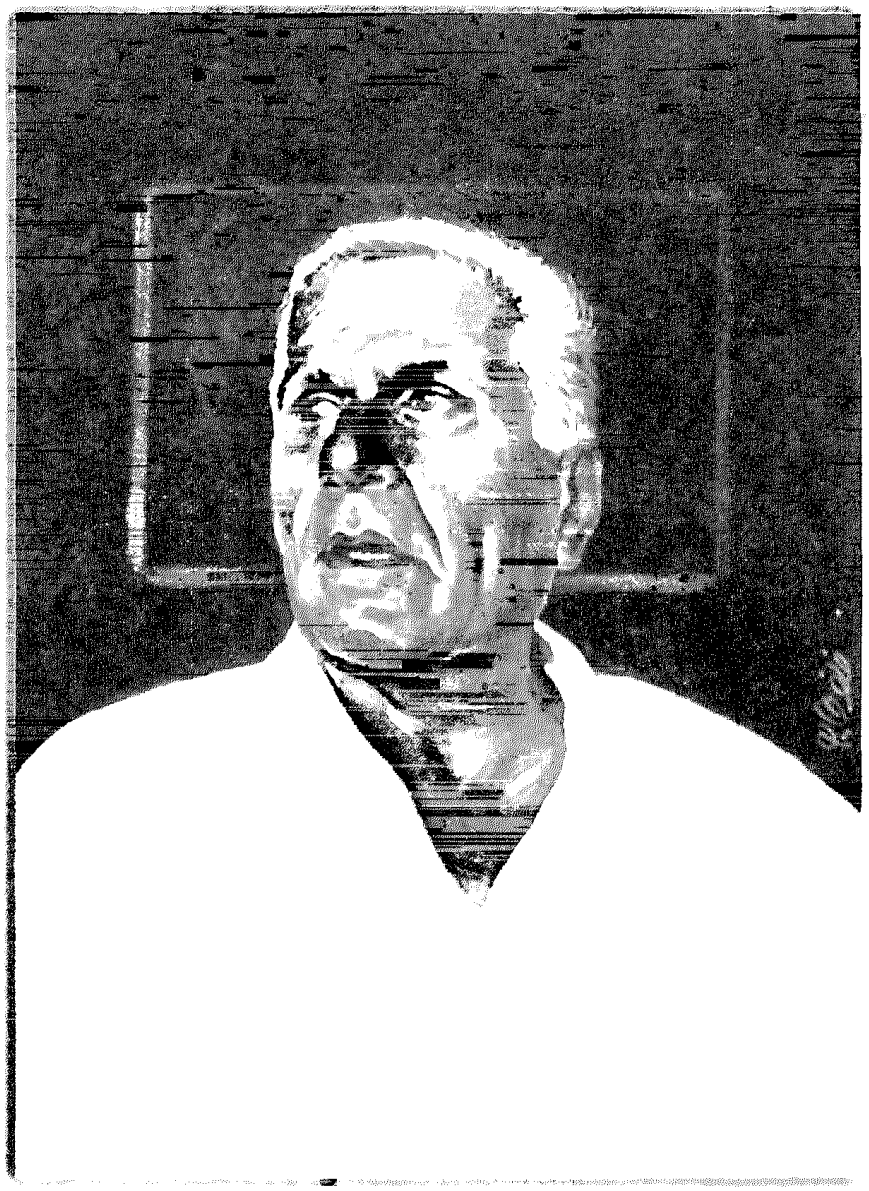

يوسف إدريس

النجـــم

حين انتشت الطبيعة وازدهت، واستنارت وتألقت، وأشرقت بالبهجة والسعادة، وابتسمت؛ كانت ابتسامتها هذا الوجه.

كأس من اللبن الحليب مخلوط بقليل جدا من الشاى القرمزى؛ حزمة من الضوء تجمعت، أخذت شكل الكأس؛ شكل وردة متفتحة.

طابع الحسن فى منتصف ذقن مسحوب كقاعدة براد الشاى الصينى، فم واسع، شهوانى، ممتلىء الشفتين؛ مضموم على بسمة أزلية كبيرة مشعة؛ بسمة بحجم مصر وأرضها وشعبها وتاريخها ونيلها وأهراماتها؛ بسمة هى سر الامتلاء بالعمق بالشجن بالأريحية العظيمة المعطاء.

أنف طويل مستقيم كالصولجان، يفصل بين خدين بارزين تحيلهما البسمة العريضة إلى جيبين متخمين بالأسرار والمعانى المدخرة الثمينة.

عينان قويتان نفاذتان، ضاحكتان؛ يتدفق منهما نهر من المرح تحملك أمواجه المتجددة إلى العصور البدائية الأولى حيث تتضح نظرات العينين بكل ما يعتمل فى النفس من مشاعر؛ حيث نظرات العينين هى اللغة الحقيقية

للتعامل مع الكون والبشر وكافة المخلوقات قبل اختراع اللغات الصوتية.

عينان كميدان التحرير وميدان طلعت حرب. فيهما زحام شديد بقدر ما فيهما من وضوح تام. تطل منهما حقول خضراء مترامية الأطراف يانعة الخضرة باسقة الأشجار؛ ترى فيها داركم فى البلد؛ ربما فى قرية البيروم بمحافظة الشرقية؛ ربما فى أية قرية من قرى مصر؛ ترى فيهما الناف والمحراث والفأس والنورج والمذراة، والأجران مليئة بأكوام التبن، وأسطح الدور تتدلى منها أعود الحطب والقش وأقراص الجلة، وأبراج الحمام، والمصلى المحندقة على شاطئ الترعة، والأخصاص والسواقى، والطنابير والشواديف، والأنفار والخولة وناظر الزراعة وكاتب الأنفار، والصفصاف والجزورين والجميز والتوت، وحقول الأرز والقطن وسنابل القمح، وبؤس الفلاحين، وطيبة قلوبهم ونقاء سريرتهم ومكرهم وخرقهم المرقعة، والأبقار والجواميس والحمير والجمال والأغنام، وأكوام السباخ وأحمال البرسيم؛ وتشم رائحة الروث ورائحة السمن البلدى المقدوح والجبن القريش والقشدة والفطير المشلتت الساخن، ورائحة طمي الفيضان وقمائم الطوب النيىء المحترق، ورائحة التقلية؛ وتسمع فيهما قأقأة الدجاج والبط والأوز، وهديل الحمام، واستغاثة الفجر، والمواويل الحمراء وغناء الشغيلة الشقيانين.

عينان تقولان لك من أول نظرة: لا تحاول إخفاء أى شىء عنى فأنا أرى كل شىء فى داخلك. تقولان لك: فلتطمئن وتهدأ بالاً فأنا مستودع أسرارك أنا البئر العميق الذى برغم عمقه ترى قاعه البعيد البعيد من فرط صفائى.

الجبين متسق. من حيث تبدأ العين اليمنى ـ بينها وبين منبت الأنف ـ خط قصير غائر فى الجبهة يشكل مع الحاجبين الغزيرين ما يشبه التوقيع كأن الله سبحانه وتعالى قد حرص على وضع توقيعه بإمضائه على هذه اللوحة البديعة.

الجبهة مزدانة بتاج من الشعر الغزير الناعم المتسق؛ من السالفيْن الطويلين إلى الفودين إلى أعلى الرأس كأنما رسمته فرشاة فنان فذ.

هذا الوجه البديع الساحر، البالغ الجمال، يعكس رجولة طاغية، على قوام عملاق، ممشوق القد، أهيف، ممتلىء؛ على درجة من الأناقة حتى دون أن يرتدى الملابس الأنيقة الثمينة، فهو يبقى مثلاً على الأناقة حتى لو ارتدى ثيابا متواضعة. لكنه، فى الواقع، كان شديد الاهتمام بأناقته، يتخير من الملابس أثمنها وأشيكها، على أحدث الموضات؛ سواء كانت البذلة الكاملة الكاروهات برباط العنق من أفخم المحلات العالمية، أو القمصان النصف كم، أو الفانلات الحريرية. إنه جميل يحب الجمال، ويحبه الجمال أيضا، وهو فى أعماقه منجم من الجمال لا ينفد.

بينه وبين جمال يوسف الصديق وشائج كثيرة، ليس فى تشابه الاسم والشكل فحسب، بل وفى الموهبة؛ فقد كان يوسف الصديق موهوبا فى تفسير الأحلام والرؤى، حكيمًا، مدبرًا، عفيف النفس، واسع الأفق، مرهف الحس، بعيد النظر، نافذ البصيرة.. وهكذا كان الفنان الفذ يوسف إدريس.

بمجرد أن تقع عينك عليه، وأنت لا تعرف أنه الفنان يوسف إدريس، فلابد أن تشعر لأول وهلة أنك أمام فنان كبير، نجم من نجوم السينما العالمية.

ولقد ألح عليه سميه المخرج السينمائى يوسف شاهين بأن يقبل اكتشافه له كممثل سينمائى. ولكن يوسف إدريس أبى أن يفكر مجرد التفكير فى قبول هذه الدعوة ولو أنه وافق، لانتقل التمثيل السينمائى فى مصر نقلة خرافية، ولظهر من المؤلفين والمخرجين من هو على مستوى هذه الموهبة. ولكننا فى هذه الحالة كنا سنخسر هذه الثورة الأدبية التى شملت الأدب العربى ونقلته إلى مستوى شاهق يناطح الأدب العالمى، والتى قادها يوسف إدريس منذ بداية الخمسينيات وظل يقودها ويغذيها بالوقود حتى رحيله الفاجع فى أوائل التسعينيات.

المذهل حقا أن يوسف إدريس لم يكن يُعد نفسه منذ الطفولة ليكون كاتبا؛ بل لم يكن ليخطرَ على باله أن يحترف الكتابة ذات يوم صحيح أنه قرأ فى

طفولته وصباه أعدادًا هائلة من الروايات البوليسية ـ (روكامبول) ـ والكتب الأدبية؛ إلا أن القراءة آنذاك كانت سلوكا عاما؛ الكتاب كان صديقا صدوقا لجميع الشباب، وعادة القراءة منتشرة فى جميع أنحاء البلاد بين كافة الطبقات؛ حتى أولئك الذين يعرفون بالكاد فك الخط فى القرى كانت القراءة بالنسبة لهم متاعا دائما. وأى مندرة ريفية وأى دكان بقالة فى القرى تجد فى طاقة منها ومنه عددا كبيرا من الكتب المتداولة، من ألف ليلة وليلة إلى الملاحم والسير الشعبية التى كانت بمثابة الجهاز الإعلامى والتثقيفى الأوحد. وفى قرية البيروم بمحافظة الشرقية ولد يوسف إدريس ونشأ وسط هذه العادة المتأصلة، عادة القراءة؛ فكان لابد أن يقرأ. وقد فرضت عليه ظروفه الخاصة أن يغترب بعيدا عن أمه وأبيه من أجل التعليم الأولى والابتدائى والثانوى؛ فعاش فى كنف جده الذى كان شيخا حكيما محنكا، فلاحا، ذكيا، يمتلىء صدره بآلاف الحكايا والطرف والأمثال والأقوال المأثورة؛ استطاع أن يستحوذ على خيال الطفل، وأن يصادقه. ومن المؤكد أن ذلك الجد هو أصل بذرة «الشقاوة» التى نمت فى قلب يوسف إدريس وخياله؛ حتى أصبح أكبر من سنه دائما؛ فمنذ وقت مبكر جدا وهو على درجة كبيرة من الوعى؛ كان طفلاً «أروبا»؛ يدرك مالا يدركه أنداده من الأمور؛ ويعرف مالا يعرفونه، ويفهم ما يرى وما يسمع؛ ويتوقف عند ما يفهمه ليقلب فيه ويستوضح ما غمُض عليه؛ ويهتم بأن يفهم وأن يرى المزيد ويعرف المزيد؛ ويدخر الكثير، فتزداد ملامح وجهه نضجا وبلاغة؛ وينشط خياله فيسرح به إلى آفاق لا يقتحمها سوى الكبار. ورغم أنه فى طفولته وصباه كان يفكر كما يفكر الكبار، وفى شبابه يفكر كما يفكر الشيوخ، وفى شيخوخته ـ التى لم يكن لها وجود إلا فى شهادة الميلاد ـ كان يفكر كما يفكر الفلاسفة والحكماء وحاملو هموم البشر؛ فإن الطفل الشقى الذكى اللماح الممراح المكار ظل منتصبا فى أعماقه حتى آخر لحظة فى حياته. كان يفكر بعقل فيلسوف ويعيش بقلب طفل شديد المرح شديد التفتح للحياة.

دخل يوسف إدريس ميدان الأدب من باب السياسة. فكل أبناء جيله من

عمالقة الأربعينيات طلاب الجامعات كانت السياسة قدرهم المقدور عليهم، إذ البلاد واقعة تحت سلطة الاحتلال وقصر ملكى ينطق بصوت سيده المحتل؛ وقضايا التحرر الوطنى والعدالة الاجتماعية تشغل الشباب ليل نهار تشاركهم فى حياتهم وفى أوقات درسهم. زملاء يوسف إدريس فى كلية الطب ممن يشتغلون بالسياسة كان بعضهم يكتب فى الأدب، مثل محمد يسرى أحمد وصلاح حافظ وغيرهما كان يسرى أحمد وصلاح يكتبان القصة القصيرة بنضج مبكر، ويقرآن على «الشلة» أو «الجماعة» ما يكتبان، فيفتنان يوسف، يخاطبان فيه كاتبًا موهوبًا مدخرًا وكامنًا فى نفسه منذ الطفولة؛ فشرع يقلدهما، لا لشىء إلا لكى يبدو هو الآخر ذا اهتمامات أدبية مثلهما، ويقرأ عليهما كما يقرآن عليه فبدأ يكتب الأقاصيص؛ ثم ما لبث حتى اكتشف الأدب ـ والقصة القصيرة بالذات ـ كسلاح ناجح يناضل به فى معركة التحرر الوطنى ونشر العدالة الاجتماعية، ونشر الوعى الاجتماعى والحضارى بين الناس.

من شدة إعجابه وافتتانه بقصص صديقه يسرى أحمد كان يطالبه دائما باعتزال الطب والتفرغ للأدب لأن شخصية الأديب واضحة جلية.. إلا أن يسرى أحمد كان مفتونا بالطب متفوقا فيه. وإن هى إلا أيام قليلة مضت على محاولات يوسف إدريس القصصية حتى بدأ هو الذى يطالبه بالتفرغ للأدب. وتشاء الظروف العجيبة أن يوسف هو الذى استمر فى الأدب والطب معا، لكنه ما لبث حتى تفرغ للأدب تفرغا تاما. أعطاه الأدب سره فأعطى نفسه للأدب؛ أصبح يعيش ليكتب؛ أصبح يتنفس الكتابة.

ما إن تكاملت مجموعته القصصية الأولى: (أرخص ليالى) حتى كان قد أثار فى الحياة الأدبية ثورة عارمة فى ميدان القصة لفتت إليه الأنظار بقوة؛ لدرجة أن عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين طلب منه أن يسلمه مخطوطة مجموعته الثانية ليكتب لها مقدمة. وبالفعل صدرت المجموعة الثانية بعنوان: (جمهورية فرحات) بمقدمة لطه حسين؛ قال فيها ـ من بين ما قال ـ إن يوسف إدريس خلقه الله ليكون قاصا، إنه قاص بالسليقة، وقصصه جديد بكل معنى الكلمة، فى الأسلوب والبناء واللغة؛ تقدم الواقع المصرى من منظور جديد أكثر

عمقا وصدقا وشمولية، تكشف عن أبعاده الدفينة، عن أعمق أعماقه غير المرئية؛ تقدم الناس كما هم فى الحياة، كما يعيشون ويفكرون ويشعرون، تقدمهم كناس من لحم ودم، لهم سماتهم وملامحهم ومكوناتهم الإنسانية، فيتعرف عليهم القارئ ويعاشرهم ويحبهم ويتبنى أوضاعهم وهمومهم ومشاكلهم.

وصحيح أن جهود يحيى حقى فى القص ذى المذاق المصرى والروح المصرية كانت بارزة وذات حضور قوى على الساحة الأدبية ممثلا فى رائعته الروائية (قنديل أم هاشم) ومجموعاته القصصية: (دماء وطين)و (أم العواجز) و(عنتر وجوليت)؛ إلا أن يوسف إدريس كان مذاقا جديدا تماما؛ كان المنشىء الحقيقى لفن القصة القصيرة المصرية الخالصة قلبا وقالبا، الحداثية، المتفردة فى البناء والأسلوب واللغة والرؤية الفنية. فأنت من أول سطر تقرأه ليوسف إدريس تشعر أنك تقرأ أدبا مصريا صرفا، لكاتب مصرى حكاء مصرى؛ موهبة الحكى عنده نابعة من القرية المصرية، من مخيلة مصرية، هى مزيج فذ من راوى ألف ليلة وليلة والسير الشعبية والمواويل الدرامية وشاعر الرباب وفرفور السامر، وكتب التراث الأدبى العربى المعنية بالقص مثل كتاب الأغانى للأصفهانى وكتب الجاحظ وأبى حيان وابن قتيبة وأبى على القالى، والمؤرخين القدماء أمثال المسعودى وابن خلدون والقرطبى والطبرى والمقرى؛ على خلفية مستنيرة من فنون الحكى عند الشعوب الأوروبية والشرقية التى سبقتنا فى ابتداع قصصها الخاصة ورواياتها الخاصة.

لم نعد نقرأ أصداء لقصص جى دى موباسان وبلزاك وتولوستوى، وإدجار ألن بو وديستويفسكى وتشيكوف ومكسيم جوركى ممن تأثر بهم رواد فن القصة القصيرة فى أدبنا الحديث؛ إنما أصبحنا نقرأ أدبا معادلاً، لا يقل بأى حال من الأحوال عن أدب أولئك الذين أثروا فى أدبنا؛ ذلك هو أدب يوسف إدريس الطازج النابض بالحيوية الواضح الهوية.

فى قصص يوسف إدريس يبدو لنا الواقع المصرى وكأنه جديد علينا، كأننا

لم نعشه من قبل، لم نره، لم نلمسه؛ ومن هنا تنشأ لذة الاكتشاف عند القارىء اكتشاف واقعه الذى لم يكن من قبل يعيه جيدا كما يعيه من خلال هذه القصص؛ تصل لذة الاكتشاف إلى حد النشوة بتعاظم الوعى. هذا أدب يوسع المدارك، يفتح العيون، ينير الأفئدة، يشحن القلوب والصدور بتجربة إنسانية حية تسهم فى دفع الإنسان إلى الأمام، فى تغييره إلى الأفضل، فى قيادته إلى المشاركة الإيجابية فى معترك الحياة، فى بناء نفسه وتأسيس شخصيته؛ فى تقوية روح المقاومة عنده، وتنمية غريزة الإرادة فى نفسه.

قدم يوسف إدريس الشخصية المصرية الحقيقية فى قصصه لأول مرة؛ وفيما سبق كانت مجرد شبح لا يتعرف عليه القارىء جيدا.

لأول مرة فى الأدب المصرى نرى الريف على حقيقته، القرية المصرية بكل زخمها وطينها وروثها وعاداتها وتقاليدها. استقام فى أنظارنا عالم القرية الحق؛ الذى كان غائبا من قبل عن الأدب القصصى؛ رأينا الفلاح الحق، رأينا مصر فى أصفى مرآة: الفلاح والموظف والجندى والطالب والعامل ورجل الشارع والمثقف والخفير والمدير والطبيب وكل أنماط البشر المصريين كما لم نرهم من قبل. رأينا حياتنا، جذرونا، واقعنا الراهن بلا زيف بلا تجميل بلا تجهيل بلا تضليل؛ رأينا المكونات التاريخية لشخصيتنا الإنسانية، فأحببنا ما يستحق الحب فيها، ورفضنا ما يجب رفضه. عرفنا كيف يكون معنى الوطن، والحرية، والإرادة.

سرعان ما انتشر يوسف إدريس انتشار النار فى الحطب الجاف؛ سرى فى شرايين القراء سريان النيل فى أحشاء مصر. أحبه القراء حبا كبيرا. فى زمن قصير أصبح علما على القصة القصيرة فى الثقافة العربية المعاصرة، وأحد أبرز أدبائها فى العالم.

بفضله قامت أمجاد القصة القصيرة فى مصر، حيث شهدت أزهى عصورها وأروع نماذجها على يديه وحده؛ حتى الذين أبدعوا فيها كانوا يستمدون منه

الإشعاع، ينسجون على منواله، يستشرفون رؤاه، يستخدمون أدواته التى رسخها وطورها، ومفرداته التى أوجدها ـ تقريبا ـ من العدم. طغى مذاقه الخاص على كل من يكتبون القصة القصيرة من حوله. أما الذين حاولوا الخروج من سيطرته فكان أدبهم يبدو اصطناعيا، كالسمن الاصطناعى، يخلو من القيمة الغذائية، يخلو من النكهة الحريفة.

(أرخص ليالى)، (جمهورية فرحات) و (آخر الدنيا) (أليس كذلك)، (لغة الآى آى)، (النداهة)، (العسكرى الأسود)، (البطل)، (أنا سلطان قانون الوجود)، (بيت من لحم)، (الحرام)، (العيب)، (البيضاء)، (نيويورك ٨٠)، كل هذه المجموعات القصصية، والقصص الطويلة، وغيرها، أصبحت علامات ومدارس يتخرج فيها الأجيال من الكتاب؛ أصبحت أبنية راسخة فى الثقافة العربية المعاصرة هيهات أن تفقد جدتها أو يخفت تأثيرها القوى. إن عالم يوسف إدريس القصصى أصبح دما يجرى فى عروق الكتابة العربية بوجه عام؛ قلما تجد كاتبا معاصرا غير متأثر بهذه الموهبة الحوشية بشكل أو بآخر، بقدر أو بآخر.

دوره فى المسرح لا يقل أهمية عن دوره فى القصة. لقد كان من الواضح أنه ذو ميول مسرحية منذ وقت مبكر؛ لديه قدرة فذة فى بناء الشخصية الإنسانية، وبناء الموقف الدرامى ذى الخصائص المصرية. اللمسة المسرحية فى قصصه كانت بارزة؛ مما دفع المسرحيين المستنيرين إلى تكليفه بمسرحة قصته (جمهورية فرحات)؛ فقام بذلك بكفاءة مسرحية عالية، وقدم معها مسرحيته البديعة (ملك القطن) ليعرضا معا فى عرض واحد. ثم كتب مسرحية (اللحظة الحرجة) مستوحاة من حرب السادس والخمسين،، ليقدم من خلالها بطلا إنسانيا حقيقيا، ذلك البطل الذى يمكن أن يخطئ ويكذب على نفسه فى لحظة تحت ضغط الخوف، ويكون خوفه وضعفه هما المحك الحقيقى الذى تتولد منه إرادة البطولة.

على أن الانطلاقة المسرحية الحقيقية بالنسبة ليوسف إدريس تمثلت فى مسرحية (الفرافير)؛ التى كانت فى نفس الوقت انطلاقة كبرى فى المسرح

المصرى بوجه عام. كانت بداية محاولة حقيقية وجادة لخلق مسرح مصرى خالص، غير مقلد للمسرح الأرسطى الغربى، يستمد عناصر بنائه الفنى من التربة القومية، ويستلهم فنون السامر المصرى، ويستكشف السلوك المسرحى الكامن فى الشخصية المصرية، لينميه ويطوره ويجعل منه عنصرا إيجابيا فعالا فى البناء الدرامى.

نجحت مسرحية الفرافير نجاحا منقطع النظير على خشبة المسرح، لأنها لم تكن مجرد فلتة عبقرية عابرة؛ بل كانت مشروعا فنيًا مدروسًا؛ مهد له الكاتب بعدد من الدراسات النظرية فى طبيعة الروح المسرحية فى الشخصية المصرية، وفى الملامح المسرحية الأصيلة الكامنة فى التراث الشعبى. كان فى الواقع يقوم بتهيئة الأرض لتأصيل بطله الفرفور، وشكله المسرحى المصرى الفريد. وقد عمد يوسف إدريس إلى تطوير مشروعه المسرحى على نفس النهج فى العديد من المسرحيات التالية: (المهزلة الأرضية)، (المخططين)، (الجنس الثالث)، (البهلوان).. الخ.

لم تلق واحدة من هذه المسرحيات ما لقيته الفرافير من ذيوع وقدرة على التأثير، لكنها جميعا حققت حضورا قويا فى الساحة المسرحية.

وكان يوسف إدريس صادقا مع نفسه تماما الصدق؛ فحين انخرط فى الصحافة لم يكن مجرد صحفى، وحين كف الواقع عن إمداده برؤى قصصية تليق بقلمه وإمكاناته عمد إلى المقال الصحفى فطوره، ووصل به إلى مستوى الفن الرفيع، كبديل للقصة القصيرة.

المقال عند يوسف إدريس كان بمثابة المدفعية الثقيلة تطلق قذائفها بدربة فلا تخطىء هدفها أبدا. كانت مقالته الأسبوعية تملأ الحياة أنسا وبهجة وثورة، تثبت أن المصريين قادرون أبدا على الحياة بعزة وكرامة؛ تثبت أيضا أن فى البلاد صحافة حرة حارة ساخنة. كان يوسف إدريس هو الملح على مائدة الحياة المصرية، وبغيابه صارت الحياة ماسخة، دلعة، لا طعم لها ولا حرارة فيها. لقد احترق فى السماء نجم هائل، لكن ضوءه وبريقه لا ولن ينطفئ على مد الأزمان.

نعمان عاشور